

العمى الأخلاقي في زمان الحداثة السائلة عند زيجمونت باومان

Moral blindness in the time of liquid modernity at Zigmont Baumann

د. سعودي كحول

فايد فواز¹

جامعة 8 ماي 1945 قالمة

طالب دكتوراه جامعة 08 ماي 1945 قالمة

kahoulguelma@gmail.com

faidfouaz@gmail.Com

تاريخ الوصول 2020/12/20 القبول 2022/01/20 النشر على الخط 2022/06/05

Received 20/12/2020 Accepted 20/01/2022 Published online 05/06/2022

ملخص:

لقد حاول المشروع الغربي بداية من القرن السادس عشر ميلادي إعادة قلب الروئية الكونية، من رؤية ثنائية تجمع بين السماء والأرض إلى رؤية كونية أحادية تهدف إلى جعل البشرية أكثر تقدماً ورفاهية، وجعلت من العقل والفرديانية والحرية و... أساساً صلبة لها، فجعلت من الإنسان لها على الطبيعة، و جعلت من العقل مصدراً لكل تشريع معرفي أو أخلاقي، لكن سرعاناً بدأت قيم الحداثة تنهار مع بداية القرن العشرين، وأعلنت مدرسة فرنكفورت عن اغتراب الإنسان عن ذاتيته و مجتمعه، لذلك كان إعادة البشرية إلى السكة امرًا ضرورياً بعدما تفاقمت الأوضاع و تأزمت، وأصبح المجتمع الصناعي الحديث يهدد قيم البشرية، هذا ما جعل زيجمونت باومان، يضع مشروعاً فلسفياً متكامل الأبعاد يشخص فيه أمراض الحضارة الراهنة، إلا أن البارز عند باومان يتمثل فيما يسميه بالعمى الأخلاقي في زمان الحداثة السائلة، فالأخلاق لم تعد مثلما كانت في السابق ذات قوة وتأثير على الأفراد و المجتمعات، حيث أصبحت الأخلاق سائلة حينما طغت الحركة الاستهلاكية عليها، فتحول الفرد من كائن أخلاقي عاقل إلى حيوان استهلاكي، نتيجة الإفراط في الاهتمام بالمنتجات الاقتصادية التي انبثقت عن العقلانية الحداثية المفرطة، لذلك جعل من إصلاح الأخلاق هدفاً أساسياً لتقويض السيولة التي تغرق فيها البشرية الراهنة، لهذا كان لازماً علينا طرح الإشكالية التالية، كيف كان المشروع الحداثي الغربي ذا تأثير واسع على الأخلاق في زمان الحداثة السائلة؟

الكلمات المفتاحية: العمى الأخلاقي، الحداثة الصلبة، الحداثة السائلة، تصدع الرقابة الأخلاقية، الحركة الاستهلاكية.

Abstract:

Beginning in the 16th century AD, the Western project tried to restore the heart of the cosmic narrative, from a bilateral narrative that combines heaven and earth to a mono-cosmic narrative aimed at making humanity more advanced and prosperous, and making reason, individuality, freedom and ... Basically solid to it, it made man god on nature, and made the mind a source of all cognitive or moral legislation, but soon the values of modernity began to crumble at the beginning of the twentieth century, and the Frankfurt School announced the alienation of man from his self and society, so the return of humanity to the tracks was necessary after the situation worsened and worsened, and the modern industrial society became threatening the values of humanity. That's why Zigmont Baumann develops a full-dimensional philosophical project in which he diagnoses the diseases of current civilization, but baumann's preeminent is what he calls moral blindness in a time of liquid modernity. Morality is no longer as powerful as it was in the past and influenced individuals and societies, where morality became liquid when the consumer movement overwhelmed it, turning the individual from a sane moral being into a consumer animal, as a result of over-attention to economic products that emerged from excessive modern rationality, thus making From moral reform to a fundamental goal of undermining the liquidity in which current humanity sinks, that's why we had to ask the following problem, how was the Western modernist project having a broad impact on morality in a time of liquid modernity?

Keywords: Moral blindness, solid modernity, liquid modernity, the crack of moral control, the consumer movement.

مقدمة

عرفت مرحلة الحداثة تغيرات هامة في مجال الحياة العامة في المجتمعات الغربية بشكل الخاص، بداية من القرن السادس عشر، إلى غاية نهاية القرن التاسع عشر، تغيرات جذرية مست ملامح الحياة الاجتماعية بشكل واسع، فكانت الحياة الأخلاقية من أبرز تلك المظاهر التي جعلت الحداثة الغربية تقوم على ركيزة أساسية وهي مبدأ فصل الأخلاق عن الحياة، حيث لم تعد المنظومة الأخلاقية تتحكم فيها المعايير الأخلاقية التي كانت في السابق (خاصة في المصدر الديني)، وبذلك أضحت الأخلاق تتحكم فيها الذاتية الفردية التي تعتبر من أهم المبادئ التي انطلقت منها الحداثة الغربية، خاصة حين أعلنت الحرب على كل ما هو مقدس وسموي، وجعلت من الإنسان هو المشرع والإله في الأرض لكل دستور أخلاقي يخضع لمبدأ الذاتية التي تتعالي وفق الفردانية المفرطة. وهذا ما يؤكد باومان في كتابة الحب السائل فيقول: " إنه إنسان بلا صفات، إنسان الحداثة الباكورة الذي نضج حتى أصبح إنسان بلا روابط"¹، والسؤال الذي يطرح نفسه، كيف تغيرت معالم الأخلاق من الحداثة الصلبة إلى الحداثة السائلة؟

1- الحداثة الصلبة و بداية تصدع المنظومة الأخلاقية:

ومع تطور الإنسانية في العصر الحديث وظهور المجتمعات الرأسمالية التي تتحكم فيها اقتصاديات السوق، ظهرت بصورة معاكسة ومغايرة تماما للقيم الإنسانية ومبادئ عصر التنوير، مما يسمح لنا بالقول ان علاقات الإنتاج الرأسمالية واقتصاديات السوق ، و التي بدأت بالتشكل بالتوازي مع مبادئ وقيم عصر التنوير التقدمية و التحررية الإنسانية، فقد نجحت في النهاية في تهميش تلك المبادئ وتفريغها من مضامينها الإنسانية التحررية و تحويلها الى هياكل فارغة و عديمة الفاعلية²

ويشير عبد الوهاب المسيري الذي يعتبر من أهم الدراسين و المفكرين الذين دراسو الفكر الغربي الحديث من خلاله ارهاصته الاولى إلى غاية المآلات التي وصل إليها المشروع الحداثي الغربي، من تأزم كل اشكال الحياة بصفة عامة، فيؤكد أن السبب في الأزمة الأخلاقية التي يعاني من الغرب في الوقت الراهن يعود سببها إلى شيوع فكرة الواحدية المادية الصلبة و السائلة في العصر الحديث، التي ترى وتلخص العالم في مكون وجود واحد فقط في العالم، وأنه لا يوجد فرق بين الانسان و الطبيعة، والسبب الرئيسي الذي أدى إلى انتشار الديانات الطبيعية والعبادات الجديدة بما في ذلك عبادة الشيطان والنزعات الكونية، فكلها دعوات تؤكد اسبقية الطبيعة على الفرد والانسان وعلى المجتمع كافة، وتدعو الانسان إلى الذوبان في الطبيعة، وتلغي كيانه كمقوله لها حدودها المستقلة، وتفكك مقوله الانسان وتقوضها، ثم ينتهي الامر بهذه الدعوات إلى رفض فكرة العالم المتناسك الذي يدور حول مركز ما ليحل محله عالم سائل لا مركز له.³

ويشير زيجمونت باومان في كتابة الحداثة السائلة إلى تلك التجربة التي انطلقت منها الحداثة الغربية الصلبة وذلك من خلال تجاوز الحمل الثقيل الذي كان عائقا أمام الإنسان الأوروبي بشكل خاص، فيقول في هذا الصدد: " فعندما اردت الحداثة أن تشرع بجديدية في بناء نظام

¹ زيجمونت باومان، الحب السائل(عن هشاشة الروابط الإنسانية)، ترجمة: حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث و النشر، القاهرة/ مصر، ط1، 2017، ص 109.

² معن الطائي، السرديات المضادة (بحث في طبيعة التحولات الثقافية)، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، لبنان، ط1، 2014، ص 21.

³ عبد الوهاب المسيري، قضية المرأة بين التحرير و التمركز حول الأنثى، ضمن سلسلة التنوير الإسلامي، نضمة مصر، الجزيرة، مصر، ط2. 2010، ص 10

جديد (صلب بمعنى الكلمة؟)، كان لازماً عليها أن تتخلص من الحمل الثقيل الذي وضعه النظام البائد على كاهل البنائين. كانت "إذابة المواد الصلبة" تعني قبل كل شيء إسقاط الالتزامات "عفي عليها الزمان"، وتقف في طريق الحساب العقلاني للنتائج، أو كما يقول ماكس فيبر تحرير المبادرة و الإقدام من قيود الوجبات العائلية ومن النسيج الكثيف الذي يميز الالتزامات الأخلاقية¹، و هذا دليل قاطع على أن الحداثة الغربية الصلبة في بدايتها كانت معركتها الأولى هي إذابة كل الأفكار القديمة البالية التي لا تتماشى مع العقلانية باعتبارها الحاكم و المرعرن للإنسان الحديث الصلب، و يشير في ذات السياق أن من بين المواد الصلبة التي حاولت الحداثة الصلبة القضاء عليها هي نزع و ترك كل المقدسات ، فقامت بتدنيس كل مقدس وهذا ما يوضحه في هذه العبارة: "كانت أولى المواد الصلبة ، التي قررت الحداثة إذابتها أولى المقدسات التي قامت بتدنيسها، تتمثل في الولايات التقليدية و الوجبات و الحقوق المعهودة التي تغلي الايدي، وتقيد الارجل، وتعوق الحركة، و تكبح زمام المبادرة و الاقدام"²

يشير زيجمونت باومان إلى العلاقة المفرطة التي شنتها الحداثة الغربية على كل الأسس و المعايير السابقة في كل المجالات و الأخلاقية بشكل خاص فيقول في هذا الصدد: "حققت الحضارة الحديثة نجاحاً فاضحاً في إحلالها للمعايير العقلانية محل كافة كل المعايير الأخرى، باعتبارها معايير "لاعقلانية" وفق التعريف الحديث، وباعتبار أن أهمية الحكم الأخلاقي تنضخم بين المعايير اللاعقلانية . هذا النجاح الفاضح كان يحكمه بشكل قاطع التقدم في " التحكم عن بعد"، أي التقدم في توسيع المسافة التي يكون عليها الفعل البشري قادراً على إحداث تغيرات واضحة، فالأهداف البعيدة والتي يصعب رؤيتها لا تخضع للحكم الأخلاقي..."³

وتكمن المفارقة الكبرى في أن الانسان الغربي نفسه لم يسلم من هذه الرؤية المادية، وبدأت الحداثة الغربية تصنف جميع أفراد المجتمع، ولاسيما أعضاء الأقليات، إلى مواد بشرية نافعة(العمال) وغير نافعة (المجرمون والمعوقون والمسنون) من اجل استئصال كل ما هو غير نافع أو ضار بالمدينة الفاضلة المادية (اليوتيبويا التكنوقراطية) التي لا يعيش فيها سوى الإنسان المثالي (الانسان الالي) وهو انسان يتمتع بأعلى درجات الدقة و الانضباط والتنظيم تماما مثل النحل و النمل والحيوانات الأخرى، دون الاهتمام بالقضايا الإنسانية الكبرى أو الأعباء الأخلاقية التي تميزه عن الطبيعة المادية المحضة (القوانين الاقتصادية وتكثيف الإنتاج) وبذلك ازداد تركز الحداثة الغربية حول الكفاءة وتأثير الصفات البيولوجية والوراثية على إنتاج السلالات البشرية المنتجة والفاعلة في المجتمع.⁴

يربط زيجمونت باومان الاستهلاك بمرحلة الحداثة، الحداثة هي التي قدمت الكثير من الوعود للبشرية في مجالات مختلفة، لكن ما يطغى على تلك الوعود هي الوعود المادية التي تدعو إلى الحرية الاقتصادية التي تجسدت في الاستهلاك، حيث أصبح الانسان هدفه الاساسي هو اثبات ذاته عن طريق الاستهلاك، وهذا ما يؤكد في أحد أهم النصوص التي

¹ زيجمونت باومان، الحداثة السائلة، ترجمه: حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث و النشر، بيروت لبنان، ط2015، ص 44.

² المصدر نفسه، ص44.

³ زيجمونت باومان، الحداثة والهولوكوست، ترجمه: حجاج ابو جبر، دنيا رمضان، مدرات للأبحاث و النشر، القاهرة، مصر، ط1، 2014، ص295.

⁴ حجاج علي أبو جبر، المقاربة المجازية للحداثة الغربية، في كتابات عبد الوهاب المسيري و زيجمونت باومان، ضمن كتاب جماعي (عبد الوهاب المسيري في عيون

أصدقائه ونقاده)، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 2008، ص289.

كتبها وهو كتاب حالة الازمة التي عاجل فھيھا الحدائھ بشكل ووفير وأھم المخلفات التي نتجت عن تلك الوعود فيقول: "كان ذلك مثلاً بديعاً للحدائھ، الاستھلاك للجميع من دون استثناء، ألم تكن هي تلك السعاده؟، ألم يكن ذلك هو كل ما يتمناه المرء، أن يمتلك ويشترى و أن يستهلك ما يريد بلا حدود، وبلا ذنب؟، لقد أتت اخلاق العمل لتكافئ المستهلك الفاضل، الذي يتفق كل ما يكسبه لتقوية الاقتصاد الإنتاجي و الأسواق، وبھذه الطريقت استعدت النزعة الاستھلاكية لاكتساب مزيداً من الأھمیتة فيما يتعلق بالإنتاج، وأن يصبح في الحدائھ المتأخره البديل العظيم للعمل"¹

يربط زيجمونت باومان الاستهلاك بمرحلة الحدائھ، الحدائھ هي التي قدمت الكثير من الوعود للبشرية في مجالات مختلفة، لكن ما يطغى على تلك الوعود هي الوعود المادية التي تدعو إلى الحرية الاقتصادية التي تجسدت في الاستهلاك، حيث اصبح الإنسان هدفه الاساسي هو اثبات ذاته عن طريق الاستهلاك، وهذا ما يؤكد في أحد أهم النصوص التي كتبها وهو كتاب حالة الازمة التي عاجل فھيھا الحدائھ بشكل ووفير وأھم المخلفات التي نتجت عن تلك الوعود فيقول: "كان ذلك مثلاً بديعاً للحدائھ، الاستھلاك للجميع من دون استثناء، ألم تكن هي تلك السعاده؟، ألم يكن ذلك هو كل ما يتمناه المرء، أن يمتلك ويشترى و أن يستهلك ما يريد بلا حدود، وبلا ذنب؟، لقد أتت اخلاق العمل لتكافئ المستهلك الفاضل، الذي يتفق كل ما يكسبه لتقوية الاقتصاد الإنتاجي و الأسواق، وبھذه الطريقت استعدت النزعة الاستھلاكية لاكتساب مزيداً من الأھمیتة فيما يتعلق بالإنتاج، وأن يصبح في الحدائھ المتأخره البديل العظيم للعمل"²

ويشير زيجمونت باومان إلى فكرة أساسية تتمثل في الأخلاق، هي أن الحدائھ الغربية قام بفصل و إلغاء الأخلاق، أو مثلما يسميها هو بالحدائھ المنقطعة عن الأخلاق، فسمحت ببناء أخلاق متعددة على حساب راغبات الذات و أهوائها المختلفة: "إن الثقافة الحديثه منقطعة الصلة بالأخلاق، بمعنى أنها تتجه إلى استئصال فكرة المسؤولية الأخلاقية الفردية من دون أن تأخذ المسؤولية الجمعية على محمل الجد"³، فقد تركت الأخلاق من دون قيود، و أصبحت تتحكم فيها القوى البيولوجية والاجتماعية لخدمة أغراض معينة مختلفة.

يذهب "زيجمونت باومان" في كتابه "الشر السائل" أن منظومة الحدائھ أفرزت فلسفة جديدة تلغي كل المظاهر الاخلاقية في الحياة العامة، حيث يصبح كل ما هو غير أخلاقي، بأنه أخلاقي، فأصبحت الخيانة والوعود الكاذبة صفات أخلاقية جديدة تكرر المقولة الميكافلية " الغاية تبرر الوسيلة" فيقول في هذا الصدد: " ففي عالم تسوده الروابط الانسانية المحطمة، والوعود و الكلمات المبالغ فيها، لم تعد الخيانة مسألة صادمة، فعندما يغيب الاخلاص عن مركز شخصياتنا،

¹. حالة الازمة، ص 113.

². حالة الازمة، ص 113.

³. زيجمونت باومان، وليونيداسدونسكيس، الشر السائل(العيش مع اللابدل)، الشبكة العربية للأبحاث و النشر، بيروت، لبنان، ط1، 2017، ص 175.

ويختفي كقوة جامعة لهوية الانسان، فإن الخيانة تصبح فضيلة اللحظة¹، يشير ايضا في احد كتبه المعنونة "بالعمى الأخلاقي" "Cécité morale"

مع الحدائة الغربية، التي تطورت بشكل واسع مع الثورة الصناعية، ظهرت فكرة جديدة تعرف ب اللامبالاة الأخلاقية، فاصبح الانسان، لا يكثرث باي منظومة أخلاقية، او أي معايير يخضع لها في السلوكيات الأخلاقية: "فاللامبالاة الأخلاقية وصلت أوج قوتها _ وخطورتها_ في مجتمعنا الحديث الصناعي الذي يهتدي بنور العقلانية والتكنولوجيا الفائقة"²، ومن هنا تخضع الانسان لمبد الفرد وفق ما يردده و الطريقة التي يريد ان يتبعها في تحقيق ذلك السلوك وذلك الفعل الأخلاقي .

2 - الحدائة السائلة العمى الأخلاقي:

يذكر زيجمونت باومان في كتابه الخوف السائل عبارات يؤكد فيها الفرق الكبير بين الحكايات الأخلاقية القديمة، مع الحكايات الأخلاقية التي تسود الراهن، و هي الاخلاق السائلة، مما بين تلك الفجوة الكبيرة بين اخلاق الماضي و أخلاق الحدائة السائلة فيقول في ذلك: "كانت الحكايات الأخلاقية في الماضي تدور حول الثواب والذي ينتظر الأبرار والعقاب الذي ينتظر الأشرار، و أما ما يقدمه "الأخ الأكبر" و "الحلقة الأضعف" من حكايات أخلاقية، وغيرها من حكايات لا حصر لها، لأهل عاملنا السائل، فتؤكد حقائق أخرى مختلفة، أولا:العقاب هو القاعدة، و الثواب هو الاستثناء، فالفائزون هم من يستثنون من الحكم العام بالطرده، ثانيا: الصلات بين الفضيلة و الرذيلة، والثواب والعقاب، إنما هي صلات واهنة وعشوائية، وكأن الأناجيل اختزلت في سفر أيوب ومصائب القدر التي حلت به من دون سبب"³ ومن هنا كانت التشريع الأخلاقي معاكسا لما كان في السابق، فأصبحت الأخلاق سائلة مائعة لا تعرف الاستقرار و ثبات التشريع الأخلاقي، مما جعل الأخلاق تتصدع وتتصدع الأسس و المبادئ التي تتأسس عليها، فأصبحت التشريعات الأخلاقية القديمة مجرد أساطير فقط يجب القضاء عليها، فأصبحت الأخلاق بتعبير باومان مجرد حكايات يمكن سردها في الوقت الذي نريدها وفق مصلحتنا الخاصة، و بذلك عجزت عن إيجاد حل للوضعية التي يعيشها الإنسان الحالي ولا تظهر الاخلاق إلا في مرحلة الخطر فقط: "فالحكايات "الأخلاقية" في زماننا تدور حول الخطر الشرير والطرده الوشيك، حول اقتراب الناس من مرحلة العجز عن منع القدر"⁴

و يشير زيجمونت باومان إلى مسألة أساسية تتمثل في الخوف، حيث أن الأخلاق في الحكايات الأخلاقية القديمة كانت تقوم على مبدأ أساسي يتمثل في الخوف وغرسه لدي الناس، لكن في الوقت الراهن أصبحت الحكايات الأخلاقية عكسي ذلك، فغياب الخوف جعل الأسس الأخلاقية تتغير من شخص إلى شخص آخر ومن مجتمع إلى آخر، لذلك صرنا نعيش وجود الكثير و العديد و التعدد

¹ - الشر السائل، ص 128.

²، الحدائة و الهولوكوست، ص 295

³ .زيجمونت باومان، الخوف السائل، ترجمة: حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث و النشر، بيروت لبنان، ط1، 2017، ص 56.

⁴ المصدر نفسه، 56

الغير مسبوق في التأسيسي للمعايير الأخلاقية، فبغياح الخوف غابت الصرامة الأخلاقية، نتيجة غياب العقاب و الثواب، وهذا ما يوضحه في هذه العبارة الآتية: " وكافة الحكايات الأخلاقية تستمد تأثيرها من غرس الخوف، ولكن إذا كان الخوف الذي تغرسه الحكايات الأخلاقية في الماضي يحقق الخلاص(فكان ذلك الخوف يصاحبه تريقاق، ووصفه لدرء التهديد الباعث على الخوف، ومن ثم الحياة دون خوف) فإن الحكايات "الأخلاقية" في زماننا لا تعرف الرحمة ، ولا تعد بأي خلاص، فألوان الخوف التي تغرسها يصعب علاجها، بل و لا يمكن استئصالها ... " ¹.

ويذكر زيجمونت باومان على لسان كبار فلاسفة القرن العشرين، وهما الفيلسوفة الالمانية حنا ارندت و الفيلسوف إيمانويل ليفناس، عن الطريقة التي انتقلت الحداثة الغربية من مرحلة الصلابة إلى مرحلة السيولة، التي سالت فيها و تميع كل شيء، و لذلك كثيرا ما نجده يعود إلى الاستشهاد بقولهما في اغلب النصوص التي كتبها فيقول في عن هذا الانتقال على لسنايهما: " و لكن حدثت تطورت جوهرية منذ أن قال ليفناس ما قاله أو منذ أن قالت حنة ارندت ما قالت، إنه شيء مهم جدا للغاية، إن الانتقال من الحداثة " الصلبة" إلى الحداثة "السائلة" من مجتمع المنتجين إلى مجتمع المستهلكين، من الكيان "الجامع" إلى الاحتفاء بالنزعات الفردية ، ومن مجتمع الضبط والانضباط إلى مجتمع نزع الضبوط والقيود. إن الأزمنة التي نعيشها هي أزمنة أزمة السيادة، سواء في صورتها الإلهية الأصلية أو في صورتها المعلمنة المعدلة" ²

يخلق مجتمع الاستهلاكي تغيرات على صعيد القيم فيحولها إلى قيم انية فورية ومتغيرة في مجتمع يسوده الانقطاع الانقسام والتغير المستمر، دائما ما تدفع الفرد إلى المشاشة والسيطرة التي تحكم قانون السوق وتوجهها، وهذا ما يؤثر على نمط تخطيط الافراد، مما يجعل التخطيط تخطيطا سريعا قصيرا الاجل غايته الاسمي هي الحصول على الأرباح والفوائد المالية فقط وفي قوت قصير، ومن هنا يؤثر مجتمع الاستهلاك على تشجيع المشاشة والسطحية، وبسلف قصيرة المدى ³ ولم تعد القيم الأخلاقية الغيرية التي تحكم سلوك الفرد مع غيره بقادرة على تحقيق التماسك والاندماج الاجتماعي، تلك القيم التي كان يرجع مصدرها إلى المسيحية وحركة الإصلاح الديني وعلى رأسها البيوريتانية، ولم يبق إلا القيم الفردية التي يحرص مجتمع الاستهلاك على إنتاج المزيد منها، لأن هذه هي القيم القادرة الآن على تحقيق شيء من الاندماج الناتج عن الاشتراك في شيء واحد وهو الاستهلاك بالطبع، فقد غير مجتمع الاستهلاك من معنى الفردية تماما. فلم يعد الفرد يسعى لأن يحقق ذاته بل أصبح يسعى لنيل موافقة الآخرين و كسب رضاهم و التماهي معهم، لم تعد الفردية قيمة مطلقة بل مجرد توافق وظيفي. و بدلا من السعي نحو إنجازات يغير بها المرء أوضاعه و يتجاوز بها حاله نحو حال آخر، أصبح يسعى نحو مجرد نيل رضاء الناس.

¹. الخوف السائل، ص 57.

² ، الشر السائل، ص 58.

³ سوزان عبد الله ادريس، لا أخلاقية العنف عند جان بودريار، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، سنة 2018 ص 89.

ويشير زيجمونت بازمان في خاتمة كتابه حالة الازمة على العلاقة الوطيدة بين البحث عن الخلاص في الاسواق الاستهلاكية و هشاشة الروابط الاخلاقية وتصدها تماما، بحيث يعتبرون انفسهم بشرا مستهلكون في المقام الاول وأنهم مواطنون في الدرجة الأخيرة، و بذلك تتحقق انسانية الانسان في عمله الاستهلاكي، وبذلك تنزعزع و تتخلخل وتتصدع الروابط الاخلاقية القديمة بين البشر، بذلك تتباعد العلاقات بين الانا و الغير و تحكمها متلازمة الاستهلاك¹

3 - الهولوكوست باعتباره عمى أخلاقي في زمان الحداثة السائلة:

يشير زيجمونت زيجمونت بكل تأسف على ما حدث في الحرب العالمية الثانية، في تلك المحرقة التي تعرض لها اليهود الالمان، والتي سميت بالهولوكوست، التي ابيد من خلالها آلاف من اليهود بحجج غير مقنعة، ومبررات غير إنسانية، حيث غابت كل المبررات الأخلاقية في ذلك، فكانت دوافعها غير إنسانية لتحقيق أغراض شخصية، وهذا ما عبر عليه زيجمونتباومان في كتابة الحداثة و الهولوكوست²، لم تكن المحرقة مجرد مشكلة يهودية وليست حدثاً في التاريخ اليهودي وحده. وُلدت المحرقة وُقذت في مجتمع حديث وعقلاني، مجتمعا، وصلت إلى أعلى مستوى من الحضارة وعلى قمة الثقافة الإنسانية، وهذا هو السبب في أنها مشكلة المجتمع، هذه الحضارة، هذه الثقافة. ولكن لا تزال هناك خصائص أخرى للإبادة الجماعية الحديثة، والتي لا تميز فقط عن سابقتها من قبل العدد الكبير للغاية من الضحايا الذين قتلوا في وقت قصير للغاية. "المحرقة الحديثة تتميز من ناحية بغياب افتراضي للعفوية ومن ناحية أخرى، بسبب غلبة مشروع عقلاني تم تطويره بعناية. [...] قبل كل شيء، تبرز لغرضها. [...] الهدف في حد ذاته هو الرؤية الكبرى لمجتمع أفضل ومختلف اختلافاً جذرياً. الإبادة الجماعية الحديثة هي عنصر من عناصر الهندسة الاجتماعية يفترض أن تنتج نظاماً اجتماعياً وفقاً لمشروع المجتمع المثالي. إن الصورة التي تناسب هذا المشروع هي أفضل صورة للبستنة، وفقاً لبومان: بالنسبة لأي بستاني، في الواقع، "يجب أن تحتفي الأعشاب الضارة، ليس بسبب ما هي عليه ولكن بسبب ما يجب أن تكون عليه. حديقة جيدة التنظيم. [...] إزالة الأعشاب الضارة نشاط إبداعي وغير مدمر. لا يختلف عن الأنشطة الأخرى التي تسهم في تطوير وصيانة الحديقة المثالية. جميع رؤى مجتمع الحداثة تحدد أجزاء من الإسكان الاجتماعي كأعشاب بشرية. مثل كل الأعشاب الضارة، يجب علينا عزلها والسيطرة عليها ومنعها من الانتشار، وإبقائها خارج حدود المجتمع؛ إذا ثبت أن هذه الاحتياطات غير كافية، يبقى قتلهم فقط. "وبهذا المعنى، فإن المحرقة (ولكن أيضاً المذابح التي ارتكبتها ستالين، كما يقول بومان) هي جزء من الحداثة: لأن "الثقافة الحديثة هي ثقافة من النوع البستنة. يتم

¹، حالة الازمة، ص 180.

² هذا الكتاب يرفض المواضع الشائعة حول الإبادة الجماعية للمأساة اليهودية الداخلية للتاريخ اليهودي، تتويجا لمعاداة السامية الألمانية، وحادث مسار الحضارة الغربية الذي لا يمكن تفسيره. على العكس من ذلك، يدرس هذا الكتاب خصوصاً كيفية الإبادة الجماعية على غرار إجراءاتها وأجهزتها على الحداثة الصناعية، مع الأخذ مرة أخرى في منطق "إنتاج الجثث" مخططات للعمل البيروقراطي والمصنع الرشيد للبلدان المتقدمة. هذا التحليل يشير إلى اجتماع فريد بين العوامل " العملية الحضارية وشكل معين من أشكال الجريمة الجماعية، مما يدل على أن أوشفيتز هي امتداد للنظام الصناعي الحديث، والمجرمين النازيين من الناس العاديين الذين استولت عليهم ديناميات عملية الإبادة، Zygmunt Bauman يعيد مرة أخرى في قلب المجتمع الحديث، فإنه يتعارض مع الاتجاه نحو تمجيد نرجسي ومورو آثار هذا الكتاب. اكتب مصدر هذه الفكرة؟

تعريفه على أنه مشروع حياة مثالية والترتيب المثالي للظروف الإنسانية، إنها تبني هويتها الخاصة على عدم ثققتها في الطبيعة. في الواقع ، فهي تعرف نفسها وتعرف الطبيعة ، وكذلك التمييز بين الاثنين ، من حيث عدم ثققتها المستوطنة في العفوية وتعطشها لنظام أفضل ومصطنع بالضرورة".

يعود زيجمونت باومان إلى نقطة حساسة جدا، كانت في بداية الحداثة الصلبة، و بالضبط في عصر التنوير، الذي تميز بالتوجه نحو نزعة جديدة لم تكن في السابق، تتمثل في نزعة هندسية نحو الطبيعة، نحو الانسان نفسه ايضا (من الناحية المادية)، فلم تكن غاية العلم الحديث، غاية العلم من اجل خدمة الانسانية بل كانت غاية في حد ذاته، حيث جعل العلم في المقام الاول أداة خارقة تسمح لمن يمتلكها بأن يغير الواقع، وأن يقوم بإعادة صياغة وبناء الواقع وفق تصورات وخطط بشرية، و أن يساهم في تغيير الواقع من اجل تحقيق كماله الذاتي، من هنا كانت البستنة و الطب نموذجين أصليين لتلك الرؤية التأويلية... تتمثل في فصل العناصر النافعة التي من حظها أن تحيا وتردهر عكس العناصر الضارة التي ينبغي القضاء عليها واجتثاثها من فوق الارض لتترك المجال للنمو والتطور جيدا و بشكل صحي وسريع للعناصر النافعة¹.

ويشير زيجمونت باومان إلى مسألة حساسة جدا في كتابة الحداثة و الهولوكوست إلى أن الهولوكوست و المحرقة اليهودية، كانت من الآثار التي انجرت عن العقلانية الحداثية المفرطة، بحيث أن طبقة اليهود المنشرة في اوروبا بشكل واسع، كان يجب اخضاعها مثل باقية الظواهر الأخرى، بسبب العزلة الكبيرة التي قام بيها اليهود، لذلك كان لازما عليهم اخضاعهم من جديد إلى العقلانية الجديدة فيقول باومان في هذا الصدد: "ففي عصور ما قبل الحداثة، كان اليهود جماعة من الجماعات، وطبقة من الطبقات، ولم يمثل يمزهم أي مشكلة. أما مع بداية الحداثة، صارت عزلة اليهود مشكلة، فكان لا بد من اخضاعها، مثل كافة الظواهر الأخرى في المجتمع الحديث، إلى عملية التصنيع، وتشبيد، والاقناع العقلائي، والتخطيط التكنولوجي، والإدارة والرقابة."²

يذهب النازيون في زعمهم بضرورة إزالة الكائنات عديمة القيمة هدفا أساسيا لا بد من ابعاده وازالته عن المجال الحيوي، أو حتي ابادته حتي تتحقق للمجتمع الألماني صفة الكمال المطلق، و بذلك الامة الواحدة الصافية الألمانية، هذه هي النقطة التي حدد ها حجاج أبو جبر في كتابه "نقد العقل العلماني دراسة مقارنة لفكر زيغمونتباومان و عبد الوهاب المسيري"³، كما يقول من جهة أخرى حسب قول باومان، على كائنات عديمة القديمة لم تتضمن اليهود الالمان هو يهود اربا فقط، حيث ضمت أيضا العجر

¹، الحداثة و الهولوكوست، ص 143.

²، الحداثة و الهولوكوست، ص، ص 122.

³ .ويشير أيضا عبد الوهاب والمسيري حول ان الإبادة النازية هي واحدة من ابرز العواقب الوخيمة التي افرزتها الحداثة الغربية في مرحلة الصلابة، وانها ليس مسألة يهودية أو مشكلة ألمانية، والأهم من ذلك، والأخطر في الوقت نفسه، هو تأكيد المسيري على أنها نتاج طبيعي للرؤية الحضارية الغربية، وليس انحرافا عنها لأن "الحضارة التي افرزت الإمبريالية والشمولية والمفعة المادية والدارونية، وفلاسفة العرقية الحديثة، هي الحضارة التي افرزت رؤية إبادية وصلت إلى قمته في اللحظة النازية ومن ثم فإن الإبادة النازية تعبر عن شئ حقيقي اصيل لا في التشكيل الحضاري الألماني وحده، وإنما في الحضارة الغربية، وليس في انحراف عن تاريخ المانية أو تاريخ الغرب الحديث" عبد الوهاب المسيري، الصهيونية و النازية ونهاية التاريخ، دار الشروق ، القاهرة مصر، ط3، 2001، ص37.

والشيوعيين وذوي الامراض العقلية، وكل من وجد فيه النازيون حشائش ضارة تهدد الانسجام الذي لا بد ان تنعم به جنة الحداثة، وهكذا كان الستة ملايين يهودي من بين عشرين مليون ضحية ازهقت ارواحهم، ومن ثمة ليس مستغربا ألا يتعامل باومان مع الهولوكوست على أنه مآلة يهودية أو ألمانية¹، بل هو أحد إمكانات الحداثة بوجه عام² يخبرنا بومان أن أكثر تمثيلات الحداثة شيوعًا "يرتكز على محورين":

من ناحية ، "قمع النبضات غير المنطقية والمعادي للمجتمع بشكل أساسي" ، ومن ناحية أخرى ، "الإزالة التدريجية التي لا تطاق العنف في الحياة الاجتماعية" (وبطبيعة الحال كنتيجة طبيعية لـ "تركيز هذا العنف تحت سيطرة الدولة"). وهو ما يعطي رؤية لما يسمى المجتمع المتحضر. حتى لو "هذه الرؤية ليست مضللة بالضرورة ، [في] ضوء المحرقة ، فهي بالتأكيد منحازة". السؤال برمته هو معرفة سمات هذه العملية الحضارية التي أدت إلى المحرقة. يحدد باومان ثلاثة معايير رئيسية هي: "تعزيز العقلانية لاستبعاد معايير العمل الأخرى" (مثل الأخلاقيات ، من بين أمور أخرى) ، تدوين وإضفاء الطابع المؤسسي على هذه "قبضة الترشيح العالمية" من خلال البيروقراطية الحديثة .

وبين زيجمونت باومان حول فكرة الإبادة الأعراق الألمانية للنزعات الأقلية التي اعتبرها كائنات عديمة القيمة، وذلك بدعوى رسم خطة المجتمع المثالي، ويرون أن هذه الفكرة لن تأتي إلا بفكرة واحدة وهي فكرة الهندسة الاجتماعية من خلال تقسيم الحياة إلى حياة نافعة ذات قيمة وحياة أخرى عديمة القيمة:

- الحياة النافعة ذات القيمة، تحظى بعناية بالغة بمواطن الحياة وبمجال حيوي ، أما الحياة الثانية، فتعزل ، وإذ لم يكن العزل حلا علميا لها فستباد³.

ومن هذا المنطق الذي انطلقت منه النازية الألمانية كانت الفئة الثانية هي الفئة المستهدفة الذي نجد من بينهم (الغرباء، و المعاقون ذهنيا وجسديا، لذلك لم يكونوا أهلا لدخولهم مملكة الرايخ الألمانية، التي ستدوم الف عام، لذلك كانت الجماعة اليهودية تمثل حالة مشابهة للأعراق الأخرى، ومن هنا كانت مهمة تدمير العرق اليهودي، باعتبارهم غرباء عن ألمانيا، و أمة غير قومية، وفي الاخير ستكون عدو للنظام و الدولة الألمانية، حسب فكرة القومية⁴.

¹ ثم يكرس بومان فصلين في كتاب الحداثة والهولوكوست لموضوع "الحداثة والعنصرية والإبادة". في البداية ، يقدم تذكيرًا تاريخيًا موجزًا لما كان "الأخر" لليهود وكيف ، مع ظهور الحداثة ، دوله القومية وتجانس اجتماعي معين ، هذه الأخرى ، كانت مرئية ويقترص على الحي اليهودي ، وكان في الوقت نفسه غير مرئية (قمع الحي اليهودي ، من بين أمور أخرى) وإعادة بنائها بطريقة خيالية. ونقلت عن هانا أرندت التي قالت إن اليهودية استعاض عنها باليهودية: "لقد تمكن اليهود من الهرب من اليهودية بفضل التحويل ؛ من اليهود لم يتمكنوا من الفرار. بالنسبة للعنصريين المعاصرين .

² حجاج ابوجبر، "نقد العقل العلماني دراسة مقارنة لفكر زيغمونتباومان و عبد الوهاب المسيري، المركز العربي للبحاث و الدراسات السياسية، قطر، ط1. 2018. ص 137.

³ ، الحداثة و الهولوكوست، ص139.

⁴ الحداثة و الهولوكوست، ص 139.

لذلك وجد هتلر هذه الافكار الخصبية روجا لمشروعه في بناء المانيا وفق الأيديولوجية النازية، وذلك من خلال تلك الحركة الكبيرة في عملية البستنة والتدمير لكل الاقليات و الطوائف الاخرى، من أجل الوصول الى مملكة الرايخ الألمانية في وقت سريع، لذلك نجد في كثير من المرات على حد تعبير باومان في قوله: " أكد هتلر على أن اكتشاف "الفيروس اليهودي" هو إحدى اعظم الثورات التي شهدتها التاريخ، المعركة التي نخوضها اليوم هي المعركة نفسها التي شنها لوي باستور وربورت كوخ في القرن الماضي، فكم من أمراض عديدة تعود إلى هذا الفيروس اليهودي، و السبيل الواحد لاستعادة صحتنا هو إبادة اليهود"¹، لذلك كثيرا ما نجد هتلر يشهبه اليهود الالمان بالطفيليات وبالأمراض المستعصية و المزمنة المسرطنة، التي يجب القضاء عليها دون هوادة و تفكير، من أجل تفادي المرض و استعادة الصحة، لذلك كان على تعبير النازيون بضرورة تطهير اروبا و البشرية من هذا الوباء بأكمله، فهناك من يسميه " بتطهير أوروبا" "مدواة أوروبا".....

خاتمة:

وأخيراً ، الثقافة العلمية الحديثة ، التي تحررت من كل الوصايا الأخلاقية (فكر ، على سبيل المثال ، الأطباء النازيون) - هي أيضاً جزء لا يتجزأ من عملية الترشيد - الثقافة العلمية الحديثة التي ينتمي إليها علم الاجتماع على وجه التحديد: لطالما كانت طبيعة وأسلوب علم الاجتماع منسجمة مع هذا المجتمع الحديث الذي وضعته نظرياً ودرسه. منذ نشأته ، حافظ علم الاجتماع دائماً على علاقات تحاكي كائنه - أو بشكل أكثر دقة ، مع صورة هذا الكائن الذي أنشأه وقبله كإطار لخطابه الخاص. وبالتالي فإن المعايير المفضلة لعلم الاجتماع كانت دائماً مبادئ الترشيد التي تعتبرها مكونات طبيعية لهدفها. وهذا يعني أن علماء الاجتماع لا يهتمون بعبارات مثل "قدسية الحياة البشرية" أو "الواجب الأخلاقي". لكن هذا العمى الطوعي أدى إلى جعل علم الاجتماع نفسه أداة "عقلانية" لإدارة ما يسمى "المجتمع".

¹. الحداثة و الهولوكوست، ص 143.

قائمة المصادر والمراجع.

- 1- زيجمونت باومان، الحب السائل (عن هشاشة الروابط الإنسانية)، ترجمة: حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث و النشر، القاهرة/ مصر، ط1، 2017،
- 2- معن الطائي، السرديات المضادة (بحث في طبيعة التحولات الثقافية)، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، لبنان، ط1، 2014،
- 3- عبد الوهاب المسيري، قضية المرأة بين التحرير و التمركز حول الأنثى، ضمن سلسلة التنوير الإسلامي، نهضة مصر، الجيزة، مصر، ط2- 2010 .
- 4- زيجمونت باومان، الحدائث السائلة، ترجمه: حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث و النشر، بيروت لبنان، ط2015، 1.
- 5- زيجمونت باومان، الحدائث والهولوكوست، ترجمة: حجاج ابوجبر، دنيا رمضان، مدرات للأبحاث و النشر، القاهرة، مصر، ط1، 2014.
- 6- حجاج علي أبو جبر، المقاربة المجازية للحدائث الغربية، في كتابات عبد الوهاب المسيري و زيجمونت باومان، ضمن كتاب جماعي (عبد الوهاب المسيري في عيون أصدقائه ونقاده)، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 2008،
- 7- زيجمونت باومان، كارلو برودوني، حالة الأزمة، ترجمه، حجاج ابوجبر ، الشبكة العربية للأبحاث و النشر، بيروت، لبنان، ط1، 2019
- 8- زيجمونت باومان، وليونيداسدونسكيس، الشر السائل (العيش مع اللابديل) ترجمه، حجاج ابوجبر ، الشبكة العربية للأبحاث و النشر، بيروت، لبنان، ط1، 2017،
- 9- زيجمونت باومان، الخوف السائل، ترجمة: حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث و النشر، بيروت لبنان، ط1، 2017،
10. سوزان عبد الله ادريس، لا أخلاقية العنف عند جان بودريار، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، سنة 2018
- 11- حجاج ابوجبر، "نقد العقل العلماني دراسة مقارنة لفكر زيجمونت باومان و عبد الوهاب المسيري، المركز العربي للبحاث و الدراسات السياسية، قطر، ط1. 2018.